

.. وخطي «مشاها» سريعاً

02 يوليو 2008

مصطفى مجدي الجمال

حينما جلست بين يدي رءوف عباس أول مرة انتابني قدر من الوجل. ولم لا؟ فعندما كنت طالباً بالثانوي قرأت لهذا المؤرخ العظيم مقالات ودراسات أثرت في فكري ووجداني أيما تأثير. أما عن الفكر فقد كتلت كتاباته جزءاً مهماً في تشكيل وعبي الشخصي بالتاريخ، وأنه ليس تاريخ الحكام والساسة فقط، وإنما يصبح التاريخ ذا معنى إذا رتبنا بالرؤية الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، وكما كان رءوف عباس بارعاً في تقديم هذه الرؤية المتضاربة! وبالنسبة لتشكيل وجداني فقد أسهمت كتابات رءوف عباس في إلهامي أن نضالات العمال والفلاحين والبسطاء هي من أهم عوامل صنع التاريخ والحاضر والمستقبل، رغم أنف بعض المتاجرين ببضاعة التاريخ ومزوريه.

بعد دقائق من جلوسي ومجموعة من الأصدقاء لأول مرة بين يدي المؤرخ كنا نحن الذين نتحدث وهو الذي ينصت باهتمام، ولكنه عندما تحدث بهرنا ليس فقط بعمق معرفته بالماضي ولفاذ بصيرته إلي الحاضر، وإنما أيضاً بخفة ظله وروحه المنبسطة وحكاياته المذهلة التي تتداعي ولا تنتهي، حتي إنك من الدهشة والحب السريع جداً لهذا الرجل لا تفاجأ بدموع البهجة تطف من عينيك. فأنت أمام عالم جليل غيور علي الحقيقة، ومتقف مهموم بأوجاع الفقراء ومستقبلهم، ومواطن مصري بسيط بكل معنى الكلمة.

وبعد عدد قليل من السنوات شعرت أنني صديق مقرب من رءوف، رغم فارق السن والحكمة والمقام، ولكني أدركت سريعاً أن كل من حوله كان يشعر أنه صديقه الأقرب. وهذه هي العبقريّة الفذة في شخص رءوف عباس. كان الرجل من أهم أعمدة مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر، وله في هذا إسهامات كبيرة أتمني علي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (التي كان رئيسها ومؤسس مقرها الشامخ بمدينة نصر) أن تجمع التراث المتناثر للراحل الجليل، وتتيحه مَجْمَعاً للباحثين والشباب، وسيكون هذا هو التكريم الحقيقي له.

لم يكتف رءوف عباس بالجهد الأكاديمي والمعارك العلمية والفكرية، وإنما نشط بقوة أيضاً في الحركات الاحتجاجية، وكتب في السنوات الأخيرة سلسلة من المقالات خطيرة الشأن تناول فيها الأوضاع السياسية بمصر. ومن أهم ما لاحظته علي كتاباته أنه لم يغرق في الثنائيات أو التناقضات المصطنعة التي دأب المثقفون علي التيه فيها، فهو لم يجد أي تناقض بين عروبته ومصريته، أو بين الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتقدم والتطوير، كما علمته دروس التاريخ البليغة أن الاستعمار حريص دائماً علي تخلف مصر وتبعيتها، وأن الديمقراطية طريق مضمون للتحرر والتقدم والعدالة.

وقد لا يعلم الكثيرون أن الأصدقاء عبد العال الباقوري وإيمان يحيي وأحمد غزلان وآخرين في صالون النديم الذي أسسه معهم، هم الذين لعبوا الدور الأكبر في تحريض رءوف عباس علي كتابة ونشر كتابه الخطير "مشيناها خطي" الذي أصدرت منه دار الهلال عدة طبعات. وإلي جانب مشوار حياته القاسي الذي حكاه بفطرية وصراحة تذكرنا بـ"أيام" طه حسين، تطرق إلي وقائع مذهلة عن زحف الفساد إلي الحياة الجامعية، وهو ما عرض الراحل العظيم لخمس عشرة دعوي قضائية كسبها جميعاً، والأغرب من كم الدعوي القضائية هذا أن رءوف لم يذكر أصلاً أسماء بعض من أقاموها ضده.

أخيراً.. كان من الملاحظات الشخصية لي أن هذا الرجل فارغ الطول كان يسير معنا في شوارع القاهرة المكتظة والفوضوية بسرعة كبيرة تجعلنا نلهث كي نلحق به، وكنت دائماً أتساءل عن سبب هذه العادة، فوجدت السبب في كتابه "مشيناها خطي". فهذا الرجل الذي تحدي طفولة وشبابا شديدي البؤس والقسوة كان يقطع القاهرة كل يوم من أقصاها إلي أقصاها علي قدميه ذهاباً إلي المدرسة ثم الجامعة، لأنه ببساطة لم يكن يملك أجرة الحافلة أو الترام.

لم يكن رءوف علس من المهرولين في مشيتهم وإنما كانت خطوته واسعة جداً. وهكذا قطع حياته الحافلة
والعاصفة، ولا نزال نحن نلهث وراءه.
طبّتَ حياً في قلوبنا وذاكرتنا يا رءوف

http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=24205&Itemid=150